نحو تمرد عربي جديد

تأليف :
موسى الموسى

نحن كشعوبٍ عربيةٍ نعاني أزمةً منذ أن شعرنا بتأخرنا الحضاري والعلمي ابتداء من القرن التاسع عشر حتى يومنا هذا؛ ومن ذلك الوقت حتى الآن، والمشاكل لا تزال نفسها: فقرٌ، شرخٌ طبقيٌّ، استعمارٌ، اقتتالٌ طائفيٌّ، مشاكل في العلاقة بين الجنسين، شباب يغرقون في المخدرات، ديكتاتوريةٌ، وحكم النخب الفاسدة، وتحوُّل مشاريع الإصلاح من أحلامٍ طوباويةٍ إلى أداةٍ للقمع والاستبداد، بل وربما تكون سببًا في الفتن المحلية والحرب الأهلية وانهيار الدولة. فلا تزال لبنان تعاني حروبًا إقطاعيةً بين سادةٍ يحملون عقليةَ القبائل، ولا تزال العراق من انتدابٍ إلى انتدابٍ ومن فشل إلى فشل، وليبيا أصبحت كعكةٍ تشترك في أكلها أيادي
المستعمرين، ولا يزال السلفيُّ يحلم بالخلافة وبالقتال بالسيف والحصان والعودةِ (ألفِ سنةٍ للوراء)، ولا يزال الشيوعيُّ يحلم بالثورة العالمية وحكمِ العمَّال للعالم وانهيارِ الدولة ونشوءِ المجتمع الشيوعي المزعوم، ولا يزال الليبراليُّ يتعامل مع الأمور بسذاجةٍ عجيبةٍ؛ إذ إنه يرى تقدُّمَ الغرب المطلق كما يراه على شعوبنا بسبب صناديق الاقتراع "المصنوعة من زجاج" وبسبب حرية التجارة، متجاهلًا جميع العوامل التاريخية التي أدَّت لذلك التقدُّم الحضاري.

باختصار: أضحينا مجتمعًا مستوردًا؛ البعض يستورد من الماضي، والبعض يستورد من الغرب. نستورد كلَّ شيءٍ: العلمَ، البضائعَ، النماذجَ، الثقافةَ، الفلسفةَ، السياسةَ، الأفكارَ، الآلاتِ، نمطَ الحياةِ، _ _ _ _ _ _ _ إلخ. باختصار: نحن موجودون فقط لنستوعب ما يصنعه الآخرون؛ لأننا ببساطةٍ، وبصراحةٍ، فارغون جدًّا، لا يوجد ما نقدمه , لا فكر ولاصناعة و لا حتى غير ذلك .

ما هي الحياة في العالم العربي؟ أزمات متكررةٌ، أحلامٌ تُقتل، شخصياتٌ تُكسر، ألسنةٌ تُقطع، فقرٌ، بطالةٌ، حروبٌ دائمةٌ، هجرةٌ متكررةٌ، _ _ _ _ _ _ _ إلخ. أسبابٌ تاريخيةٌ وسياسيةٌ واقتصاديةٌ واجتماعيةٌ عميقةٌ وشائكةٌ ومعقَّدةٌ جدًّا أدَّت إلى ما نحن عليه اليوم؛ فليس الدينُ وحدَه هو المسؤولُ عما يجري لنا اليوم، ولا الإمبرياليةُ وحدَها، ولا الفسادُ الأخلاقيُّ وحدَه، ولا الشرخُ الطبقيُّ وحدَه، ولا الاستعمارُ وحدَه، ولا الميليشياتُ وحدَها، ولا الديكتاتوريةُ وحدَها هي المسؤولةُ أيضًا، بل الأمرُ أعمقُ وأعقدُ من أن يتخيَّله

شخصٌ واحدٌ أو تسعه نظريَّةٌ واحدةٌ أو تجربةٌ شخصيَّةٌ.

سياسيًّا: لقد فشلت التجاربُ الناصريةُ والقوميةُ والبعثيةُ، لقد فشلتْ من قبلِها التجربةُ الليبراليةُ (كما ذكر عبدُ المجيد خدوري في كتابه "الفكر السياسي العربي")، ولقد فشل أيضًا مشروعُ الإسلاميّين في كلٍّ من غزة وإيران والسودان والسعودية، وانتهى مشروعُ القاعدةِ وانكسرَ سيفُ داعش، كما فشلت الديمقراطيةُ العربيةُ في كلٍّ من لبنان والعراق وليبيا، وفشلت الاشتراكيةُ العربيةُ في كلٍّ من مصر وسوريا، وفشلت كلُّ مشاريع الوحدة العربية أو الحلف الإسلامي، كما أن التطبيعَ مع إسرائيل لم يَعُدْ على الأردن ومصر بأيِّ نفعٍ يذكر، وكذا السلامُ مع إسرائيل لم يوقف حروبَها الوحشيةَ ونزعتَها نحو الاحتلال. فلا "الإسلامُ هو الحل"، ولا "الاشتراكيةُ هي الحل"، ولا "الديمقراطيةُ كانت الحل"، ولا "إنهاءُ الدولةِ والعيشُ في ظلِّ الميليشياتِ هو الحل"، ولا "الانقسامُ الطائفيُّ هو الحل"، ولا أيٌّ من ذلك. الكلُّ يتعامل مع الأمور بسطحيةٍ عجيبةٍ وسذاجةٍ رهيبةٍ؛ فالبعض يريد أن يحلَّ مشاكله من نصوصٍ عمرُها (2000 سنة) تتحدث عن البقر والبعير والساقية والجزية والفيء، والبعض يريد أن يحلَّ مشاكله من

خيالاتٍ (أو لنقل: نظرياتِ) رجلٍ تُوفِّيَ في أواخر القرن التاسع عشر، حيث كانت الحياةُ الحديثةُ في مهدها والاقتصادُ بسيطًا يعتمد تقريبًا على الزراعة والمصانع والتجارة الداخلية. تخيَّل! يريد أن يسيرَ المجتمعُ (الذي قد يُقدَّر عددُه بالمليارات) والدولةُ بكلِّ تعقيداتِها ومؤسساتِها على نظرياتِ رجلٍ تُوفِّيَ قبل أكثر من (100 عام)! والبعض يرى أن الحلَّ فقط في العلم، متجاهلًا أن العلمَ لا يتوفَّر إن لم تكن له بنى تحتيةٌ من أدواتٍ وتمويلٍ وصناعةٍ حديثةٍ متطوّرةٍ، ومناخٍ علميٍّ عميقٍ، وثقافةٍ علميةٍ كبيرةٍ، ورخاءٍ اقتصاديٍّ إلى حدٍّ ما هو أشبه بالمستحيل!!, والبعض يرى الحلَّ في القضاء على الفساد، وكأنَّ لدينا القدرةَ على أن نمسكَ العاملين في المؤسساتِ شخصًا شخصًا ونشُقَّ قلبه ونرى أكان فاسدًا أم صالحًا! والبعض يرى الحلَّ في سلطةِ القانون، وكأنَّ الأمرَ سهلٌ مثل ضغطةِ زرٍّ، وقد يكون القانونُ مجرَّدَ حروفٍ على ورقٍ، ولا يوجد ما يُلزِمُ بطاعته سوى الديكتاتوريةِ (وهي عبادةُ الحاكم)، وما دام استُثنيَ الحاكمُ وحاشيتُه من القانون، أصبح القانونُ عصًا بيد الحاكم وليس لتنظيم المجتمع ومؤسساته.

يغوص المفكرون العرب وأبناءُ الدول الإسلامية في التحليلات والنظريات والتفاصيل التي قد لا يكون لها أيُّ علاقةٍ بالوضع الراهن، أو تكون مجرَّدَ نواتجَ ثانويةٍ. يتفق الكثيرون منا (ربما أغلبيتُنا) على أن العواملَ الاجتماعيةَ والبنى الاقتصاديةَ هي المؤثراتُ الأقوى في صناعة الوضع الراهن؛ فالعوامل الاجتماعية هي التي أنتجت السياسةَ العربيةَ سواءً في شِقِّها العشائريِّ الملكيِّ، أو الجمهوريِّ الطائفيِّ، أو الاستبدادِ الديكتاتوريِّ، والبنى الاقتصادية هي التي تصنع ذلك التحالفَ المعقَّدَ والشبكاتِ الماليةَ الضخمةَ بين حاشية الحاكم ورجال الأعمال والمستفيدين، وهي المسؤولةُ أولًا وآخرًا عن الفساد المنتشر في العالم العربي.

باختصار: إصلاحُ العوامل الاجتماعية من ناحية الثقافة والفلسفة والعقيدة، والبنى الاقتصادية من ناحية المصالح الشخصية والتجارة والضرائب والعمل، _ _ _ _ _ _ _ إلخ، سابقٌ وأهمُّ من (وعلى) إصلاح القانون والفلكلوريات السياسية (مثل: وضع الصناديق الزجاجية للاقتراع، أو إقرار قانون الأحزاب، أو حرية الصحافة). ما فائدة الأحزاب والقانون وحرية الصحافة

إذا كانت بنيةُ المجتمع طائفيةً عشائريةً؟ تصبح الأحزابُ أداةً طائفيةً (مثل ما حصل مع البعث)، وتصبح حريةُ الصحافة أداةَ تحريضٍ أو عمالةٍ أجنبيةٍ، أو أداةً للسلطة وبوقًا لها (مثل ما يحصل في سوريا اليوم). وما فائدة حرية التجارة أو النظام الاشتراكي إذا كانت هناك طبقةُ مستفيدين لديهم مع حاشيةُ الحاكم، وفيما بينهم تجارةٌ ضخمةٌ وعلاقةُ مصالحَ عميقةٍ ومعقَّدةٍ؟ ببساطةٍ، وبالاتفاق فيما بينهم (سواءً رجالُ أعمالٍ أو المسؤولون الموظفون في الدولة) على ألَّا يستفيدَ أحدٌ غيرُهم.
القانون ليس من الصعب صياغته بشكلٍ كاملِ العدل، والأحزاب ليس من الصعب إقرارُها، وصناديق الاقتراع ليس من المستحيل صَفُّها في الشوارع، ولكن ليست هذه الأمورُ الشكليةَ التي ينتظرها المواطنُ العربي. فحريةُ الأحزاب في العراق ولبنان تحوَّلت لشرخٍ طائفيٍّ (مثل: حزب الدعوة الشيعي في العراق، وحزب التقدُّم الدرزي الاشتراكي "الجنبلاطي" في لبنان)، وأن تكون الدولةُ فوق الكلِّ، هذا سببٌ أن تتحكمَ طبقةُ الموظفين وحاشية الحاكم (فضلاً عن الحاكم نفسه) في رقاب الناس وأرزاقهم، بل وحتى إهانتهم (كما حصل سابقًا في سوريا "الأسد"). وأن يعودَ للأشخاصِ لقيمُهم الدينيةُ ويتبعوا النصوصَ، طيَّرَ رؤوسًا في

السعودية وجعلها تتصدَّرُ الدولَ الأولى في الإعدام والتعذيب، لكن كونها حليفةً للولايات المتحدة غُضَّ البصرُ عن هذه الأمور. كما أن اتِّباعَ النصِّ لدى أبناءِ "البغدادي" (داعش) تسبَّب في مذابحَ كبرى وجماعيةٍ، وخطفٍ عظيمٍ لبناتِ الناس ونسائهم، كما أشعل الدنيا نهبًا وقتلًا وخطفًا (كما ثبت في المصادر؛ راجع كتابَ عبد الباري عطوان "الدولة الإسلامية – داعش").

بعد كلِّ هذا السرد الطويل، ترى -أخي القارئ- كم هو المواطنُ العربي يعتمد على النماذج الجاهزة؟! نموذجُ حياةِ الخلفاء الراشدين، نموذجُ حياةِ الغرب، نموذجُ حياةِ السوفييت، وحتى نموذجُ حياةِ اليابانيين!! .

"الاستيراد" هو كلُّ المشكلة! لماذا؟ لأن الواقع معقَّدٌ ومتغيِّرٌ من زمنٍ لزمنٍ ومن مكانٍ لمكانٍ؛ فالنموذج الذي ينجح في مكانٍ له البيئةُ الفلانيةُ والشعبُ الفلانيُّ والتاريخُ الفلانيُّ والجغرافيا الفلانيةُ يناسبه النموذجُ الفلانيُّ. المعطياتُ الواقعية كثيرةٌ: هي اقتصاديةٌ واجتماعيةٌ وتاريخيةٌ.

لا أريد التحدُّث بلغة التجريد، بل إني أكرهها، وأحاول قدرَ الإمكان الكتابةَ باللغة الشعبية؛ لأن المسألة التي أنا بصدد طرحها ليست مشكلةً أكاديميةً، بل هي عامةٌ وحياتيةٌ وواقعيةٌ إلى حدٍّ بعيدٍ.

فبرأيك يا "موسى"، أين تجد مسارَ الحلِّ والمؤدِّي إليه؟

الجواب: أقول: نظريَّةُ الاستيراد أثبتت فشلها على مدار عقودٍ بل وقرونٍ؛ فلا الزمانُ هو نفسُه ولا المكانُ، وعلينا دائمًا أخذُ العينِ بالاعتبارِ للواقع والزمان والمكان؛ لأنها متغيّراتٌ جدًّا. لذلك، الشروعُ في البحث عن الحلِّ يقتضي الإجابةَ عن ثلاثة أسئلةٍ (أو لنقل: تحديدَ ثلاثةِ أمورٍ):

1. ما هي المرجعيةُ الأكثرُ منطقيةً؟
2. من هم الفاعلون؟
3. ما النتيجةُ التي نطمح إليها؟

أولًا: ما هي المرجعيةُ الأكثرُ منطقيةً؟

سيُجيبُنا الساذجون من الطرف الأول: "النص" أو "قولُ الإمامِ المعصومِ"، والساذجون من الطرف الثاني: "العقل". لكن حتى مثل هذه الإجابات السريعة هي نماذجُ جاهزةٌ. أولًا: أنت الذي تقول "النص" أو "قول المعصوم"، لماذا هذا وليس ذاك؟ بعبارة بسيطة: لماذا هذا النص وليس غيره؟ قد تقول: لأنه ضميرُ الأمةِ ووجدانُها. سأقول: الأمةُ ليست شخصًا حتى يكون لها ضميرٌ ووجدانٌ؛ الأمةُ كيانٌ تاريخيٌّ معقَّدٌ، وبنى اقتصاديّةٌ متشابكةٌ، وفيها أفكارٌ مختلفةٌ، فلا تستطيع جعلَ الطبقةِ من المشايخ ومَن حولهم من المريدين "الأمةَ" بأكملها. مثلهم مثل الطرف الآخر: شعوبٌ وأفرادٌ لا يمتاز أحدٌ عن الآخر. وأما المناقشةُ عن حقيقةِ النصِّ ووظيفتِه، فهذا ما نُحيله إلى الفصل الثاني. كما أن النصَّ قد يحتمل أكثرَ من فهمٍ وتفسيرٍ (مثل القرآن: تتراوح التفاسيرُ بين أكثرِها عنفا كالذي كان عند "داعش"، وبين أكثرِها انفتاحًا كالذي كان عند "القرضاوي" و"الشحرور" و"حبش"). وقد يكون للنصِّ

أكثرُ من طريقٍ (مثل الحديث والعلوم الفقهية: تتراوح طرقُ السندِ ما بين الأكثرِ جريمةً كالذي في كتاب "السياسة الشرعية" لابن تيمية و"بلوغ المرام" لابن حجر، أو الأكثرِ انفتاحًا ورحمانيةً كالذي في "الأربعين النووية"). وقد يقول الشخص: لماذا لا نحكِّمَ النصَّ لكي نضمنَ السماءَ، ونحكِّمَ القسمَ الرحمانيَّ منه لكي نضمنَ الأرضَ؟

أقول: لو اقتنع الناس (أو لنقل: الأغلبية، أو لنقل: الطبقة الحاكمة) بالنصِّ كمرجعيةٍ للدولة والمجتمع، فإنه قد يفتح بابًا للقسم القاسي والعنيف من الشريعة. ومهما حاولنا تطبيقَ القسمِ اليسرِ والروحانيِّ منها، فإنه لا يزال هناك احتمالُ تطبيقِ القسمِ العنيفِ منها. من أجل هذا نستبعدُها كخيارٍ سياسيٍّ وأخلاقيٍّ. أما الخيارُ المعرفيُّ فللقسم اللاحقِ.

وثاني أمرٍ يجعلنا نستبعدُ الشريعةَ: أنها قائمةٌ على نظريَّةٍ مفادُها أنه علينا افتراضُ وجودِ إلهٍ في السماءِ أمرَنا بها ونحن نخافُ منه، فلهذا علينا تطبيقُها، وليس لأنها صالحةٌ واقعيًّا أو لأنها عينُ العدالةِ. فلو أنها (أي الشريعةُ الفقهيةُ) بانت أنها الأكثرُ فسادًا، لَقَبِلَ بها أهلُها؛ لأن فسادَ الدنيا خيرٌ من الاحتراقِ في النارِ. فلو أن

(مثلًا) العلمَ أو التجربةَ أثبتا عدمَ وجودِ مثلِ هذا الإلهِ، لَانهارتِ الشريعةُ وحكمُها وأهلُها بشربةِ ماءٍ! فأساسُها مزعزعٌ؛ لأنها تتعلَّق بفرضيةٍ مشكوكٍ بها هي فرضيةُ الإلهِ. ولا يمكن القبولُ ببرنامجٍ سياسيٍّ واجتماعيٍّ قائمٍ على فرضيةٍ من نصوصٍ أتتنا من (1000 سنة).

وثانيًا: لكلِّ فرقةٍ نصٌّ ورجالٌ وتفسيرُها الخاصُّ بها، فيقع التنازعُ وتقع الفتنةُ والتفرُّقُ؛ فلا الشيعةُ يقبلون ما عند السنةِ من تفسيرٍ ورجالٍ وفقهٍ، ولا السنةُ يقبلون ما عند العلويين، ولا الصوفيةُ يقبلون ما عند السلفيين، ولا القاعدةُ يقبلون ما عند داعش، ولا داعش تقبل ما عند القاعدة، ولا الإخوانُ يقبلون ما عند الجهاديين، _ _ _ _ _ _ _ إلخ. فتصبح البلادُ لعبةً بأهواءِ رجالِ الدينِ ومَن لفَّ لفَّهم، لكلٍّ منهم تفسيرُه الخاصُّ وسندُه الخاصُّ ومصادره الخاصةُ. تُدارُ البلادُ بالأهواءِ وتُلعبُ بها الفتنُ (كما حصل في لبنان والعراق). على أي حالٍ، فكرةُ "حكمِ النصِّ" كلُّها تتعلَّق بصدقِ النصِّ نفسِه؛ فلو لم يكُنِ النبيُّ نبيًّا ولا إلهٌ موجودٌ، لم يَعُدْ لحكمِ النصِّ مبرِّرٌ. لهذا، بقيةُ هذه المناقشةِ نُحيلُها للفصلِ المقبلِ.

أما الساذجون من الطرف الثاني الذين أجابوا بـ"العقل"، فنقول لهم: عقلُ مَن؟ ديكارت؟ أم هيوم؟ أم لايبنتز؟ أم

نيوتن؟ كلُّ شخصٍ عندما يرى ما يفكِّر فيه منطقيًّا يُسمِّي أفكارَه هذه "عقلًا". لقد أبلَى الأستاذُ محمدٌ قلاوي بلاءً حسنًا عندما بيَّن أن معظمَ أفكارِنا نستوردُها من المحيطِ التأثيريِّ الذي يريدُنا من الحواسِّ؛ فكثيرٌ من الأمور التي نظنُّها بديهيةً أو صحيحةً هي بالواقعِ ليست إلا عاداتٍ أكتسبناها من فترة الطفولةِ إلى اليومِ من الأحداث التي نعيشها يوميا , نعممها لتكون مبادئا عقلية و فلسفية ِ على سبيل المثال، ابنُ سينا عندما جعل للكواكبِ أرواحًا وعقولًا مثلِ البشرِ، سَمَّى خرافاتِه "عقلًا"، وابنُ تيمية عندما قال إن اللهَ تحلُّه الحوادثُ، سَمَّى جدالاتِه "عقلًا". فالعقلُ كلمةٌ مجرَّدةٌ، لستُ أجدُ لها معنى مطابقًا تمامًا في العالم الواقعي. ويتفق معي في وجهةِ النظرِ هذه البروفيسورُ في علومِ الأعصابِ الدكتورُ مصطفى بصل (كما أخبرني هو نفسُه عندما التقيتُه في مكتبِه): فنحن نعرفُ الدماغَ ونعرفُ وظائفَه وتشريحَه، وأمَّا "العقلُ" فهو على ما يبدو من رواسبِ الأصولِ الوسطى، قد نعتقدُ أن العقلَ هو كفاءةُ الدماغِ المعرفيةُ أو أسلوبُه في تنظيمِ الحواسِّ، _ _ _ _ _ _ _ إلخ. المقصود من كلِّ هذا: أن العقلَ ليس له معنى محدَّدٌ أو شيءٌ من الممكن أن يتَّفقَ عليه الجميعُ. لنقل مثلًا مسألةَ المثليةِ: المدافعون عنها يرونها عقلانيةً؛ لأنه من

الطبيعي أن يختارَ الفردُ العاقلُ الحرُّ توجهَه الخاصَّ، بينما يراها المعارضون على أنها قمةٌ في اللاعقلانيةِ والعبثِ؛ لأنها منافيةٌ للفطرةِ. فكما نرى، "العقل" هو لعبةُ أهواءِ الناسِ ومزاجِهم؛ فكلَّ ما أحبُّوه أو اعتادوا عليه قد يُسمُّونه "عقلًا"، وكلَّما لا يعجبهم يُسمُّونه "عبثًا". أنا أعرف تمامًا دعاةَ "العقل" في العالم العربي ماذا يقصدون: إنهم يرادفون بين "العقل" و"اللَّا نصّ" (أي عدم اتِّباع النصِّ والشريعةِ على العموم)، وقد يرادفونه بـ"لا عاداتِ" بسبب المهرِ أو الحجابِ أو غيره. ولكن إذا استمررنا بهذه الطريقةِ في التفكيرِ، فإنا سنتوه ونبقى في أماكنِنا ندورُ في الحلقةِ المفرغةِ وفي الجدالاتِ العقيمةِ. والبعضُ يقصدُ بقيمِ عصرِ التنويرِ ويُغالي فيه تقديسًا وعبادةً، وكأنَّ عصرَ التنويرِ لم يُنتِجِ الإرهابَ والاستغلالَ والاستعمارَ والشرخَ الطبقيَّ! والبعضُ يقصدُ بالعقلِ المبادئَ البديهيةَ (مثل: السببيةِ والغائيةِ) لكي يؤمنَ الأفرادُ من خلالِهما "بإله حكيمٍ ونبيٍّ أرسله"، وهذا النبيُّ هو الشخصُ الفلانيُّ وكتابُه حقٌّ يجبُ اتِّباعُه. ولكن العلمَ الحديثَ (خصوصًا ميكانيكَ الكمِّ والكيمياءَ) لم يتركْ لها مجالًا لمثل هذه المبادئِ البديهيةِ (كما سنبيِّنُ في الفصلِ اللاحقِ).

بعد كلِّ هذه المناقشةِ، نجدُ أن فكرةَ "المرجعيةِ" كلَّها خاطئةٌ أيًّا كانت؛ لأنها أولًا: مزاجيةٌ وإنسانيةٌ (كما رأينا قَبْلُ: المزاجُ في التفسيرِ والمنقولِ من الأحاديثِ، والمزاجُ في اختيارِ معنى "العقل"، والمزاجُ في اختيارِ الإمامِ المعصومِ، والمزاجُ في اختيارِ الشعاراتِ). على أي حالٍ، نستطيعُ العيشَ بلا مرجعيةٍ، مثلما يعيشُ الرجلُ البسيطُ تمامًا. برأيي، الرجلُ البسيطُ هزَمَ أعاظمَ المفكِّرين في هذه المسألةِ. العيشُ بلا مرجعيةٍ يعني العيشَ بلا قيودٍ، يعني العيشَ بلا ذُلٍّ، يعني العيشَ بلا استبداد، يعني العيشَ بلا خديعةٍ. لهذا، استبدلُ "المرجعيةَ" بشيءٍ أكثرَ أهميةً هو "المرونةُ والمناسبةُ". المرجعيةُ قد تصطدمُ بالظروفِ الجديدةِ أو الأماكنِ الأخرى، بينما المرونةُ والعيشُ بما هو مناسبٌ يناسِبُ كلَّ الظروفِ والأزمانِ. أعني بهذا المصطلحِ: نحن كجماعةٍ ما (كالعائلةِ، أو أمةٍ، أو حزبٍ، أو مجموعةٍ علميةٍ، أو إدارةٍ، _ _ _ _ _ _ _ إلخ) نقدّر الظروفَ ونختارُ الحلَّ الأكثرَ مناسبةً والأكثرَ منفعةً. تكونُ لسياساتِنا مرونةٌ كبيرةٌ ومستقصدةٌ في الاقتصادِ والسياسةِ والعاداتِ والقوانينِ، _ _ _ _ _ _ _ إلخ. يكونُ كلُّ شيءٍ مطاطيًا ومتغيّرًا بحسب الظروفِ, نختارُ دائمًا الحلَّ الأكثرَ فائدةً لأطولِ فترةٍ ممكنةٍ لأكثرِ

عددٍ ممكنٍ من الناسِ. الاقتصادُ: لا اشتراكيٌّ ولا رأسماليٌّ ولا مختلطٌ، بل الخليطُ متغيّرٌ مع الزمنِ بحسبِ الأكثرِ مناسبةً والأكثرِ منفعةً. لا إسلاميةٌ ولا علمانيةٌ ولا قوميةٌ، بل فقط أفرادٌ يبحثون عن العيشِ الكريمِ ورفاهيةٍ وانعدامِ الحاجةِ والفقرِ. والقوانينُ: لا إجراميةٌ ولا متسامحةٌ ولا تخدمُ أشخاصًا معينينَ، بل يكونُ هدفُ القوانينِ هو السيرَ المتوازنَ لجميعِ أعمالِ الشعبِ وحياتِه، وعلى هذا قِسْ جميعَ المسائلِ التي تعرضُ أمامَك.

ثانيًا: من هم الفاعلون؟

أي: هل ننتظرُ من الأمريكيّينَ والإسرائيليّين التغييرَ؟ أم ننتظرُ القواتِ الأمميةَ القادمةَ من كوريا الشماليةِ وروسيا تُحرّرُنا؟ أم ننتظرُ مجاهدًا شيشانيًّا وأفغانيًّا وأيغوريًّا لكي يُنهيَ الطغيانَ ويُحرّرَني من المباني إلى جنَّةِ الخيامِ؟ أم ننتظرُ قواتِ ولايةِ الفقيهِ تُحرّرُني من الصهاينةِ؟ أم ننتظرُ فتَاتَ الحكامِ ورحمتَهم؟ أم علينا "بخبزنا وفقط" ولا علاقةَ لنا بشيءٍ، لكن هل خبزُك متوفّرٌ قبل أن تجدَه؟ أم نعيشُ بيأسٍ وكفى، الدنيا ملكُ

إبليسَ سيدِ هذا العالمِ؟ ما رأيكم؟ الإجاباتُ باختصارٍ: هل تتمنَّى أمريكاُ الفلوجةَ؟ أم إسرائيلُ جنوبَ لبنانَ؟ أم تنتظرُ أُمميةَ شرقِ أوروبا سابقًا وكوريا الشماليةِ؟ أم تنتظرُ جنَّةَ أفغانستانَ وإندونيسيا؟ أم تنتظرُ عودةَ سوريا "الأسد"، ولبنان "حزب الله"، وعراق "السستاني" تحت قبضةِ ولايةِ الفقيهِ؟ أم تنتظرُ حكمَ زعماءِ العربِ الذين يُعدمونَك على كلمةٍ أو هل تنتظرنظامِ المحسوبياتِ؟ ، أما اليأسُ فهو أمرٌ واقعٌ تعيشُه كل يوم ونأمَلُ تغييرَه عاجلًا أم آجلًا.

رأيي باختصارٍ: هو أن الفاعلينَ للتغييرِ هم "نحن". مَن الذي سيُغيّرُ حياتَك للأفضلِ سوى أنت؟ نحن في عالمٍ ماديٍّ متوحِّشٍ، كلُّ مجموعةٍ لا تسألُ إلا عن مصلحتِها. ولا أقصد بهذه الكلمةِ "مجموعةً" أي الطوائفِ والأعرافِ في بلدي، بل كلُّنا في "الهوا سوا " كما يُقال. زعماءُ العالمِ وشبكاتُ رجالِ الأعمالِ والمؤسساتُ لا تعملُ إلا بلغةِ المصالحِ، سواءً أكانت أمريكا أم تركيا أم إيران. ونحن إن لم نفكِّرْ كيف ننجو بأنفسِنا وبأيدينا، فإنهم (أي الآخرون) لن يُنقِذونا، بل سيعتبروننا طُعْمًا لمصالحِهم. ولا أقصد بالآخرين الشعوبَ الأخرى؛ هم مثلنا لا حولَ ولا قوةَ، بل أقصدُ المؤسساتِ الدوليةَ

والشبكاتِ الماليةَ والتنظيماتِ؛ يهمُّها منفعَتُها فقط بحكم طبيعةِ عملِها، ولولا ذلك ما استمروا.

على أي حالٍ، كثيرٌ من العلمانيين في عالمنا العربي من يتمنَّى الاستعمارَ لبلده، وأن تأتيَ الملائكةُ من الخارجِ لكي يُقيموا العدلَ في بلده، متجاهِلًا كلَّ التاريخِ والجغرافيا والأوضاعِ السياسيةِ الحاليةِ. الإصلاحُ لا يأتي من الخارجِ؛ تاريخيًّا، لم تنهضْ أمةٌ من الخارجِ، قد تتدمرُ أو تعودُ (1000 سنةٍ للوراء) بسببِ الخارجِ، لكن على أي حالٍ لن تنهضَ، والسببُ بالطبعِ ظروفٌ اقتصاديةٌ ونفسيةٌ واجتماعيةٌ معقَّدةٌ لا مجالَ لذكرِها هنا. وهذا العلمانيُّ (بطبيعةِ الحالِ بسبب بعضِ الحمقى المتطرّفين أو شيخِ طائفةٍ في الطرقاتِ أو فتاةٍ رفضَتْ الحديثَ معه) يتمنَّى الخرابَ لبلده والدمارَ والتشردَ وانتصارَ الأعداءِ عليهم.

هذا واقعٌ مهما حاولنا تجميلَه.

هنا سأحاورُ العلمانيَّ العربيَّ بلغةٍ يفهمُها: أنت تقولُ إن انتصارَ الغربِ وتقدُّمَهم بسببِ ثقافتِهم، أليس كذلك؟ سيقول: نعم. سأقول: من ثقافةِ الغربِ حبُّ الوطنِ

والبلادِ، وكرهُ مَن يريدُ احتلالَ بلادِه، ومعاداةُ عدوِّ بلادِه، فلماذا لا تفعلُ مِثلَه؟ والمشكلةُ هي أن العلمانيين دائمًا يستثنون أنفسهم من معادلةِ التخلُّفِ، مع أن فتراتَ حكمِهم كانت أطولَ بكثيرٍ من فتراتِ حكمِ الإسلاميينِ، وعددُ غيرِ الملتزمينَ دينيًّا يفوقُ عددَ الملتزمينَ، ودائمًا ما يرفعون أنفسَهم فوقَ كلِّ الناسِ وكأنهم "المصطفون" مثلُهم مثلُ عامةِ المثقفين. على أي حالٍ، هذه الطريقة في التفكير ليست حَلًّا؛ فالمشكلةُ: التبَرِّي من جمهورِ الأمةِ والتذمُّرُ من "مجتمعِنا" طوالَ الوقتِ لن يأتيَ إلا بوجعِ الرأسِ. فلا الإسلاميُّون بأفضلُ من العلمانيين، ولا العكسُ؛ لأن حكمَ الطرفينِ رافَقَه تخلفٌ وسوءُ إدارةٍ وفسادٌ. فالأمورُ المشتركةُ بينهما هي:

1. ديكتاتوريةُ فردٍ (مثل: بعثِ حافظ وصدام، ومثل ناصر والحبيب بورقيبة)، أو ديكتاتوريةُ جماعةٍ (مثل ما حصل في السودان أو ليبيا القسمِ التركيِّ، أو مصر أيام مرسي)، أو ديكتاتوريةٌ ملكيةٌ (مثل الخليج العربي عامةً).
2. نخبةٌ لا تنفكُّ عن الحكمِ ويشكِّلون طبقةً متمايزةً عن الأمةِ، والأمثلةُ على ذلك في البلاد العربية كثيرةٌ.

3. الاستيرادُ والتقليدُ في كلِّ شيءٍ: "بورقيبة" استوردَ النموذجَ الفرنسيَّ، و"عبد الناصر" استوردَ النموذجَ السوفييتيَّ، و"الملك فيصل" استوردَ نموذجَ الراشديين، و"مرسي" استوردَ نموذجَ العدالةِ والتنميةِ، و"صدام" استوردَ نموذجَ ستالينَ، ومثلُ ذلك كثيرٌ.

4. كثرةُ الكلامِ والشعاراتِ والأحلامِ دون الاهتمامِ بتفاصيلِ الواقعِ الحقيقي و احتياجات الناس .

5. المبادئُ تطغى على مصالحِ الفردِ، والكلماتُ أهمُّ من خبزِه ومن عيشه؛ فالوحدةُ الإسلاميةُ وولايةُ الفقيهِ والوحدةُ العربيةُ والديمقراطيةُ والعلمانيةُ لم تستطعْ أيا منها إسكاتَ الجياعِ وتخفيفَ الآلامِ، بل ربما زادتْ فيها.

6. استحقارُ باقي الشعبِ، والقصد في خداعِهم وتخديرِهم وكأنهم "طُرْشٌ" لا يفهمون، أو لا عقولَ لهم، فهم بالنهايةِ "العوامُّ" والقوةُ البشريةُ، يُجَنَّدُ فيها الإعلامُ والمدارسُ لغسلِ أدمغتِهم ولترسيخ روايتهم الرسمية وجعل شعاراتهم عقيدة(كما يعتقدون)، ولكن الخداعَ لا يدومُ للأبدِ.

7. البطشُ الشديدُ ضد المعارضينَ والآخرينَ، سواءً من العلمانيين أو من الإسلاميين، أو حتى فيما بينهم.

وبسببِ هذا البطشِ وهذه الخلافاتِ الكثيرةِ، لم تسلَمِ المنطقةُ العربيةُ من الحروبِ يومًا.

8. إبعادُ باقي الأمةِ عن المناصبِ والنشاطاتِ والعملِ التجاريّ والحيويّ والعلميّ والدبلوماسيّ، _ _ _ _ _ _ _ إلخ،من كلِّ شيءٍ تقريبًا، واقتصارُ كلِّ هذا على طبقةٍ معيَّنةٍ مقرَّبةٍ من الدولة (أو بالأحرى من مسؤولي الدولة)، مما سبَّب في خمولٍ عامٍّ لدى الشبابِ العربي و الشعبِ العربي عامةً، مما جعله ضحيةَ التفاهةِ والمخدراتِ وإدمانِ الجنسِ والتطرُّفِ الدينيّ وعبادةِ الغربِ.

9. تفشّي العمالةِ الأجنبيةِ والجواسيسِ والخيانةِ في صفوفِ المسؤولين، مما أدَّى لخساراتٍ متتاليةٍ في صفوفِ الجيوش العربية.

10. التقصيرُ في حقوقِ الشعبِ سواءً الماديةِ أو الإنسانيةِ أو المعنويةِ، _ _ _ _ _ _ _ إلخ.

حسنًا، لماذا كلُّ هذا؟ قبل الإجابةِ عن هذا السؤالِ، لابدَّ أن أُنوّهَ على أمرٍ، وهو أنني كثيرًا ما أُفسِّرُ الحوادثَ التاريخيةَ والسياسيةَ بناءً على أمورٍ نفسيةٍ، سواءً كانت نفسيةَ فردٍ أو نفسيةَ جماعةٍ. بالطبعِ لا أُهمِلُ الوضعَ

الماديَّ الاقتصاديَّ الذي له الأهميةُ القصوى، ولكن في بعضِ الحالاتِ وبعضِ الأحيانِ يكونُ جنونُ الحاكمِ أو نفسيةُ الجمهورِ عاملًا قويًّا في توجيهِ السياسةِ والمجتمعِ في بعضِ الحالاتِ (ليس في كلِّها). وبالطبعِ الكثيرُ من الأمورِ لا يمكن تفسيرُها إلا على نحوٍ نفسيٍّ (على سبيل المثال: دخولُ صدامٍ إلى الكويت).

11. المحسوبيةُ والفسادُ، والتعيينُ على أساسِ الولاءِ والقرابةِ.
12. استبعادُ باقي أفرادِ الشعبِ عن التأثيرِ الحقيقيِّ في المجتمعِ والدولةِ، وتبقى الفاعليةُ فقط محصورةً في مسؤولي الدولةِ وأقاربِهم ومعارفِهم، مما يتسبَّبُ في خمولٍ عامٍّ ويأسٍ كبيرٍ.

المهمُّ بعد هذا التعدادِ الذي تشتركُ فيه الأحزابُ العربيةُ والجماعاتُ السياسيةُ العربيةُ بمختلفِ ألوانِها في مختلفِ الجغرافيا العربيةِ، نجدُ أن جميعَ أذرعِ الحكمِ والموظفينَ والمثقفينَ يشتركون في ثلاثِ خِصالٍ هي سببُ كلِّ بلاوينا، وهي:

1. التكبرُ والاستعلاءُ (أي عُقْدةُ المثقفِ).
2. الفسادُ (أي المصلحةُ الشخصيةُ).
3. المحسوبياتُ (أي العلاقاتُ الشخصيةُ).

فأما الخصلةُ الأولى: فينتجُ عنها استبعادُ باقي أفرادِ الأمةِ عن النشاطِ الاقتصاديِّ والحياةِ السياسيةِ (بما فيها السلكُ الدبلوماسيُّ)، واستبعادُها عن الوظائفِ المهمةِ والعليا كونَهم "عوام" و"عديمَي الخبرةِ" (بين قوسين: "بَقَر" كما هم يعتقدون). ولهذا السببِ، الديمقراطيةُ شبهُ مستحيلةٍ في بلدانِنا؛ لأننا نعاني من عُقْدةِ "ديكتاتوريةِ المثقف" التي يؤمنُ بها أصحابُها لا شعوريًّا، بحيث يَقْسِمُ جماعةٌ ما "مثقفةٌ" الباقيَ إلى قِسْمينِ: "العوامُّ" و"المخطئون". "العوامُّ" هم القواصرُ الذين لا يعرفون كيف يديرون أمورَهم، و"المخطئون" هم المثقفون المأجورون المستفيدون (من وجهةِ نظرِهم بالطبع). فالعوامُّ يجبُ استبعادُهم، والمخطئون يجبُ تصفيتُهم. وهذا اعتقادُ كلِّ جماعةٍ مثقفةٍ على حِدَةٍ، لهذا تبدأُ المحسوبياتُ والتصفياتُ السياسيةُ. هذه الحالةُ لم تسلَمْ منها أيُّ دولةٍ عربيةٍ. وحتى تَقْوَى على الجماعاتِ الأخرى، لابدَّ لها من دعمٍ، لابدَّ لها من تعاونٍ، فتطلُبُ

يدَ العونِ من دولِ الخارجِ، فتتفشَّ العمالةُ والتخابرُ للخارجِ، وتصبحُ البلادُ سهلةً لمؤامرةِ الخارجِ و وجبة لذيذة لها. وبعدما تحكمَ هذه الجماعةُ بانقلابٍ أو تصفيةٍ، وتعيشُ البلادُ حالةَ الديكتاتوريةِ، يحتاجُ الحزبُ الحاكمُ إلى قبضةٍ حديديةٍ لتثبيتِ حكمِه وللبقاءِ على الكرسيّ، باعتبارِ أن الشعبَ بقيَ أرقامًا على ورقٍ لا قيمةَ له، ومجرَّدَ عددٍ صامتٍ لا معنى له. فيُجْري تحالفاتٍ (لنقلِ تبعيةٍ خارجيةٍ) من أجلِ أن يُؤمِّنَ خُبْزَه وسلاحَه، باعتبارِ أن صاحبَنا "المثقفَ" لا يؤمنُ بقدرةِ شعبِه على النهوضِ، ويستصغرُ من عقليتِه، وباعتبارِ أنه استبعدَ أفرادَ شعبِه من التجارةِ والصناعةِ والسياسةِ، وحكَرَ هذه الأمورَ لأقاربِه وحاشيتِه، فيبقى الشعبُ منعزلًا خاملًا قليلَ الحركةِ. ولكي تتحرَّكَ البلادُ ويُوفِّرَ سلاحَه للقمعِ ويُوفِّرَ خُبْزَه الذي يأكلُه، لابدَّ أن يعتمدَ على دولٍ قويةٍ في الخارجِ، وهذا الاعتمادُ هو عينُ التبعيةِ. لقد خسرَ شعبَه من أجلِ أن يصبحَ كلبًا للخارجِ. هذا هو حالُ أغلبِ الدولِ العربيةِ، باستثناءِ بعضِ الدولِ التي لم تعرِفِ "الثقافةَ" سابقًا (مثل دول الخليج على سبيل المثال ولكن لا نقولُ إنهم مثاليونَ؛ فهم أيضًا تبعيون للخارج، لكن على الأقل يعيشون مستوىً لا بأسَ به ماديًّا). وبالطبعِ، أقصدُ بالمثقفينَ: الضباطَ، ورجالَ

الدينِ، والأساتذةَ، وقادةَ الأحزابِ، والعلماء،المفكرين _ _ _ _ _ _ _ إلخ، بجميعِ الألوانِ: الليبراليةِ والإسلاميةِ والاشتراكيةِ والقوميةِ، _ _ _ _ _ _ _ إلخ. على أيَّةِ حالٍ. بينما المثقفون يتنازعون على الحكمِ وتصفيةِ بعضِهم بعضًا، عندها التهى عامةُ الناسِ بالطائفيةِ والعشائريةِ والتطرُّفِ الدينيّ، التي وجدوا فيها انتماءَهم الحقيقيَّ بعدما رأوا أنّ الدولةَ ومؤسساتِها غريبةٌ عنهم بل وأجنبيةٌ إلى حدٍّ بعيدٍ. لهذا أصبحتِ الطائفيةُ والعشائريةُ والقوةُ الدينيةُ قوةً لا يُستهانُ بها. اضطرَّ الحاكمُ وحاشيتُه للاستفادةِ من هذه القوى ومُجاراتها، أو حتى تقويةِ إحدِاها على حسابِ الباقي، مستفيدًا من القاعدةِ الخلدونيةِ: أنّ الدولةَ لا تقومُ إلا على عَصَبِيَّةٍ، فيختارُ الأقربَ إليه نسبًا ودينًا. فنجدُ ديكتاتوريةً سنيةً في العراق سابقًا، وديكتاتوريةً علويةً في سوريا سابقًا، وديكتاتوريةً مسيحيةً في لبنان سابقًا، وقوى شيعيةً امتدَّت على مساحاتٍ شاسعةٍ، _ _ _ _ _ _ _ إلخ.

باختصار: كلُّ مشاكلِنا في الدولِ العربيةِ هي امتداد ل "المثقفِ الضيَّعِ النرجسيّ" الذي يرى الباقي كالبهائمِ، ولا يبحثُ سوى عن السلطةِ والوجاهةِ، باعتبارِ أنّ السياسيّينَ الأوائلَ وقادةَ الأحزابِ كانوا من هذا الصنفِ

بالذاتِ، امتدَّتْ هذه العقليةُ إلى جيلِ السياسيّينَ حتى يومنا هذا. أما الدولُ التي كانوا فيها جُهَّالًا على بعضِهم، نهضوا، ونَمَوْا وتنَوروا دون أن يعانوا من صراعِ "مثقفي الضيَّعِ" كما حصل عندنا، واقترابُ عامةِ الناسِ من طوائفِهم وعشائرِهم وجماعاتِهم المتطرّفةِ زاد الشرخَ أكثرَ فأكثرَ، وضاعَ مفهومُ الدولةِ بين طيَّاتِ المثاليةِ وفي بطونِ الكتبِ وعلى شريطِ الأخبارِ في التلفزيونِ.

عمومًا، حلُّ هذه المشكلةِ (أو لنقل: الطريقُ إلى الحلِّ) هو إعادةُ جميعِ المواطنينَ، بدءًا من المواطنِ البسيطِ، اعتبارُ مشاركتِه السياسيةَ، ونفتحُ له المجالَ في المشاركةِ الاقتصاديةِ بدعمٍ تمويليٍّ أو سهولةِ الإجراءاتِ الإداريةِ، ونُتيحُ له عن طريقِ الإعلامِ قوةَ التعبيرِ والحقَّ في الكلامِ والكتابةِ، _ _ _ _ _ _ _ إلخ. هذا ما بدأ يتحقَّقُ فعليًّا عن طريقِ الإنترنتِ، وبفضلِه فقط وفقط. والمثقفون يكونُ عادةً بينهم حسدٌ وتنافسٌ، هذا الأمرُ يمتدُّ للأحزاب والجماعاتِ، فتنشأُ الخصومةُ السياسيةُ والتصفياتُ. وباعتبارِ أن العنفَ جزءٌ لا يتجزأُ من تاريخِنا ومن تاريخِ البشريةِ بشكلٍ عامٍّ، وأيضًا التربيةُ عندنا ترتبطُ بالعنفِ، فلن تكونَ ردَّةُ فعلِ سلطةِ

المثقفينَ ضدَّ خصومِها إلا عنفًا وبطشًا وتعذيبًا. والأقبحُ من كلِّ ذلك هو أن مصيرَ الناسِ وأرزاقَها تقعُ في يدِ طبقةِ المثقفينَ هؤلاءِ، فتصبحُ حياةُ الناسِ تحتَ رحمةِ عبثِ المثقفينَ والموظفينَ ومحسوبياتِهم. لهذا، تعاني معظمُ البلداتِ العربيةِ الخرابَ والتهميشَ؛ فلا يعقلُ أن يكونَ موظفٌ أو مسؤولٌ في "الشام" تحتَ المكيّفِ يشعرُ بغيرهِ في منطقةِ "الجزيرةِ" الذي يقبعُ أهلها في الحرِّ وقلةِ الماءِ والشوكِ والصحراءِ. والأقبحُ من ذلك: يكونُ مصيرُ ابنِ الجزيرةِ والباديةِ بيدِ مسؤولٍ في "الشام" يركبُ السياراتَ وكلَّ نهارِه تحتَ المكيّفِ. على مستوى رجلٍ داخلَ باصٍ مكيّفٍ لا يشعرُ برجلٍ يقفُ خارجًا في البردِ، فكيف بالفرقِ بين مسؤولٍ شبعانَ اللُّقمةِ وشخصٍ يعاني صعوبةَ جلبِ الماءِ إلى منزلِه؟ لهذا، ميليشياتُ مثل "قسد" و"حزب الله" و"القاعدة" لها شعبيةٌ كبيرةٌ بين أفرادِ الشعبِ أكثرَ من الدولةِ ومسؤوليها؛ لأن قاداتَها وأفرادَها يعيشون بين الناسِ الشعبيينَ ويدافعون عنهم ضدَّ ظلمِ الدولةِ ومحسوبياتِها. بينما نرى أسامةَ بنَ لادن يعيشُ في كهفٍ ويأكلُ البطاطا المسلوقةَ، ونرى مظلومَ عبده يشاركُ الأكرادَ في أعراسِهم ويطالبُ بحقوقِ أبناءِ الجزيرةِ من حيث التعليمِ والماءِ، _ _ _ _ _ _ _ إلخ. ونجدُ "حزب الله"

يُعطي الشيعةَ بيوتًا وأموالًا طائلةً ويُدرِّسُهم، _ _ _ _ _ _ _ إلخ، وإيرانُ تموِّلُ الشيعةَ في المقاماتِ وتُطعِمُهم، _ _ _ _ _ _ _ _ إلخ، ونشهدُ الكنائسَ العالميةَ تموِّلُ المسيحيينَ في بلدانِنا وتُدرِّسُهم وتدعمُهم للسفرِ والعملِ، _ _ _ _ _ _ _ إلخ. لهذا، التخلّي عن الطائفيةِ لدى الكثيرينَ يعني التخلّيَ عن أساساتِ العيشِ ويعني التخلّيَ عن القوةِ على أرضِ الواقعِ. بالنسبةِ للسياسةِ، فالتخلُّصُ من الطائفيةِ هو ضربٌ من المستحيلِ في الظرفِ الراهنِ.

بمَنِ الأملُ؟

إنهم فقراءُ المدنِ الذين لا معارفَ لهم، الذين تتبرَّا منهم طوائفُهم وقد هربوا من ضياعِهم ونسوا عشائرَهم، الذين يعملون بعرَقِ جبينِهم وقواهم العضليةِ. لماذا؟ لأنهم هم المسحوقون، وهم الذين يتألَّمون، وهم المفعولُ به دائمًا، كما أنه لا يوجدُ من يتحيَّزُ لهم، فالكلُّ تبرَّا منهم لفقرِهم، كما أن كلَّ همِّهم العملُ والحياةُ اليوميةُ والمعيشةُ البسيطةُ. فالغنيُّ وصاحبُ المنصبِ والمستفيدُ من الجماعاتِ لا يرى أن الدنيا سيئةٌ أو فيها مشكلةٌ، بل الدنيا بخيرٌ برأيِه، وليس هناك مشاكلُ سوى منظرُ

عشوائياتٍ يسكنُها الفقراءُ وأصواتُ الدراجاتِ الناريةِ؛ فهو لم يَجُعْ قَطُّ، ولم يَفيع عليه الذبابُ تحتَ الشمسِ والحرارةِ والدَّبَقِ، ولم يُعانِ ويُرهَقْ ويتعبْ وهو يجلبُ الماءَ لبيتِه، ولم يسمعْ بكاءَ ابنِه من الجوعِ. فلهذا، الدنيا بخيرٍ والحياةُ جميلةٌ، لا توجدُ هناك أيُّ مشكلةٍ، الحياةُ رائعةٌ ويتوفَّرُ بها كلُّ شيءٍ. هكذا يفكِّرون. أما من يذوقُ المعاناةَ، فهم الذين لا سندَ لهم ولا ظهرَ لهم (كما يُقال). أيُّ أزمةٍ أو حربٍ، هم أولُ من يتضرَّرون، وهم أولُ من يتحمَّلُ أخطاءَ وتهوُّرَ المسؤولينَ. على ما أعتقد، هم الوحيدون الذين قد ينظرونَ للأمورِ بموضوعيةٍ؛ فهم الذين يعيشون الواقعَ كما هو، ولا يتحيَّزونَ لأحدٍ لأن لا أحدَ لهم. لهذا، فالمثقفُ الشعبيُّ ابنُ المدينةِ الفقيرةِ الذي يعيشُ الواقعَ ويتأثَّرُ به، همومُه همومُ الأمةِ، ولا يعيشُ في جنَّةِ الأحلامِ ولا في أحرفِ التحليلاتِ المجرَّدةِ، هو أفضلُ نموذجٍ عن المفكِّرِ الموضوعيِّ الواقعيِّ والذي يملكُ مفاتيحَ الحلِّ. بل ألمُ الفقيرِ وهَمُّه وهمومُ المراهقينَ هَمُّه، هو الذي يعيشُ بين الأحياءِ الشعبيةِ في ريفِ دمشقَ، "سبينة" و"الحجر الأسود" و"الدحاديل" هو الذي يتأثَّرُ بارتفاعُ الأسعارِ هو الذي يفكِّرُ في المازوتِ والخبزِ والكهرباءِ، وليس في المسرحِ الرومانيِّ الكلاسيكيِّ أو شكسبيرَ أو أفلاطونَ. هو الذي يفكِّرُ في

مسألةِ ملابسِ العيدِ للأطفالِ، وليس في مسألةِ "الحلفِ بالطلاقِ" ولا مسألةِ "مسحِ الرأسِ بالوضوءِ". يفكِّرُ في الوظائفِ والتعليمِ، وليس في "حربِ الجملِ". باختصار: ابنُ الواقعِ وابنُ الطبقةِ الشعبيةِ المظلومةِ.

ختامًا، يبقى الأملُ (قبلَ المؤسساتِ) في الأجيالِ الصاعدةِ: كيف تفكِّرُ؟ وما هي العلاقاتُ الاقتصاديةُ والاجتماعيةُ والسياسيةُ فيما بينهم؟ فالمؤسساتُ والعلاقاتُ ما هي إلا هذه الأجيالُ في أشكالِها الرسميةِ والموروثةِ. لهذا، لطريقةِ التفكيرِ الصحيحةِ والموضوعيةِ أهميةٌ كبرى في صناعةِ المستقبلِ؛ لأن المؤسساتِ يُديرُها أشخاصٌ يفكِّرونَ، والاقتصادَ تُخطِّطُه عقول مفكِّرةٌ، والجماهيرُ الغفيرةُ (أي القوةُ البشريةُ) هي عقولٌ مفكِّرةٌ. فليس إصلاحُ الفكرِ طوباويةً (كما يعتقدُ حفنةُ الماركسيينَ). نحن لا نُنكِر فعاليةَ المادةِ في التاريخِ والاقتصادِ، بل نعتبرُه الأساسَ، لكننا نعتبرُها قوةً جامدةً بحاجةٍ لقوةٍ واعيةٍ تحرّكُها. فالنفطُ والترابُ والسيليكونُ والشمسُ، _ _ _ _ _ _ _ إلخ، بحاجةٍ لأفرادٍ واعينَ بمجموعِهم ولهم حاجاتٌ تصنعُ هذه الموارِدَ من شكلِها الخامِ لأشكالٍ ذاتِ قيمةٍ استعماليةٍ مقبولةٍ.

على أي حالٍ، نحن بحاجةٍ إلى تغييرِ كلِّ ما استوردْناه ليليقَ بواقعِنا وزمانِنا. فعلى سبيل المثال: نظامُ المدارسِ والجامعاتِ عندنا هو بضاعةٌ غربيةٌ بامتيازٍ، لا تليقُ بواقعِنا ولا تليقُ بتربتِنا. لهذا، جامعاتُنا لا تُنتِجُ بحوثًا ذاتَ قيمةٍ مهما دُفِعَ عليها. المؤسساتُ ذاتُ الطابعِ الغربيِّ التي استوردْناها لم تُنتِجْ إلا فسادًا وعمالةً للخارجِ (مثل البرلمانِ والوزاراتِ). والأفكارُ الغربيةُ التي استوردْناها لم تُنتِجْ إلا فسادًا واحتلالًا (مثل: الاشتراكيةِ والعلمانيةِ). كلُّ ما أنتجَتْه أوروبا من أفكارٍ إنسانيةٍ يليقُ بواقعِها (كذات فكرٌ كنسيٌّ سابقًا وواقعٌ إقطاعيٌّ منهارٌ)، فهي لا تَصْلُحُ لشعوبٍ مثلِنا، ولا تَلْبِسُ على واقعِها. مثلًا: المدرسةُ عندنا مكوَّنةٌ من صفوفٍ، كلُّ صفٍّ عبارةٌ عن مقاعدَ، وهذا أشبَهُ بالشكلِ الكنائسِ، والأستاذُ وحدَه يتكلَّمُ مثلَ الواعظِ الكنسيِّ بالتمامِ. بينما نحن في الشرقِ نميلُ للمجالسِ والحلقاتِ أكثرَ، نميلُ للمناقشةِ والأخذِ والعطاءِ أكثرَ من محاضرٍ يتكلَّمُ ويجعلُنا ننامُ. فأيامُ الحلقاتِ وملازمةُ الأساتذةِ والمحاورةُ في العلومِ والفلسفاتِ أنتجْنا أكثرَ. وحتى يومِنا هذا، الناسُ تميلُ لمشاهدةِ المناظراتِ (كالاتجاهِ المعاكسِ والمناظراتِ الدينيةِ) أكثرَ من المحاضراتِ؛ لأن

المواطنَ العربيَّ من طبعِه الحوارُ والمناقشةُ والمشاركةُ في تبادلِ المعلوماتِ، أكثرَ من شخصٍ يتكلَّمُ مثلَ بعضِ الكنائسِ والباقي خاشعٌ.

وثاني أمرٍ لابدَّ من الحديثِ عنه: هو أن الكثيرَ من المواطنينَ العربِ من تاريخِنا القديمِ حتى اليومِ عمليُّون بامتيازٍ، والإفراطُ في العلومِ النظريةِ والفلسفاتِ التجريديةِ دون عملٍ على أرضِ الواقعِ وحركةٍ لا يجعلُهم نميلُ للتعليمِ. حقًّا، أوروبا تاريخُها الهيلنستي عاش ارستقراطييها ببذخ و نعيم مما جعل لديهم وقت فراغ كبير فملأوا وقتهم بالتفكير المجرد النظري كما أنهم استحقروا الأساليب العملية و المثمرة لأن العملَ مستحقرٌ كونه للعبيدِ كما ذكر جون دوي (في كتابه). لا أقولُ إنه علينا إلغاءُ العلومِ النظريةِ، بل نجعلُها في خدمةِ الواقعِ العمليِّ أكثرَ من أن تُعطى على السبورةِ.

مثالٌ ثانٍ على فشلِ الأنظمةِ الغربيةِ في بلدانِنا: نظامُ الدوامِ. بينما الشمسُ في أوروبا كانت ضعيفةً، وأهلُ الغربِ ينقصُهم الكثيرُ من طليعةِ فيتامينِ (دال) من أجلِ تحريضِ حمضِ الفوليكِ لكي تمتصَّ العظامُ الكالسيومَ،

لهذا تعرُّضُهم للشمسِ كان ضروريًّا لصحَّتِهم. من أجلِ ذلك، جاءَ الدوامُ الإداريُّ عندهم من (6:00 صباحًا، أي شروقِ الشمسِ) حتى الساعةِ (12:00 ظهرًا) أو الساعةِ (2:00 بعد الظهرِ). أما نحن، فتكونُ الشمسُ حارَّةً جدًّا وضارَّةً من العاشرةِ صباحًا حتى الثانيةِ بعدَ الظهرِ (خصوصًا في آخرِ الربيعِ والصيفِ وأوائلِ الشتاءِ). وتَرَى أنت دوائرَ الدولةِ في سوريا: رائحةُ العرقِ مُعَبِّقَةٌ في الجوِّ يملؤُه الذبابُ، وتَرَى العمالَ تحتَ الشمسِ رؤوسُهم محمَّرةٌ وثيابُهم تَزْخَى عرقًا. هذا الوقتُ لا يليقُ بمناخِنا، ولكن التقليدَ الأعمى يصنعُ كلَّ شيءٍ

. المغربياتُ والعصرياتُ (خصوصًا في الصيفِ) هي أجواءٌ جميلةٌ بهيَّةٌ تصلحُ للمشيِ والعملِ، فلماذا لا تكونُ أوقاتُنا من الساعةِ (3:00 ظهرًا) حتى (10:00 مساءً)؟ وفي الشتاءِ نُغيِّرُ التوقيتَ ليصبحَ أكثرَ نهارًا، لم لا؟!!

وكذا البيروقراطيةُ والإجراءاتُ الإداريةُ الكثيرةُ، مما قد يطولُ الحديثُ عنه. على أي حالٍ، لم ينجحْ أيُّ مشروعٍ عربيٍّ ديمقراطيٍّ أو اشتراكيٍّ على الإطلاقِ؛ لأنه لبِسَ ثوبًا ليس ثوبَه، وأخذَ طرقًا لا تناسبُ ظروفَه

فمنذ الخمسينياتِ حتى اليومِ. والمشاريعُ الديمقراطيةُ العلمانيةُ لم تجلبْ إلا انقلاباتٍ وتقسيماتٍ طائفيةً وعرقيةً وسياسيةً حزبيةً (كمثل: سوريا في فترةِ الخمسيناتِ، وتونس بعد 2011، ولبنان الحاليةُ، وليبيا في القسمِ القطريِّ التركيِّ). والمشاريعُ الاشتراكيةُ والقوميةُ التي كانت على طرازِ "أتاتورك" و"هتلر" لم تجلبْ سوى ديكتاتوريةٍ ومحسوبياتٍ.

يحب التنويه على أمر

لا يَفْهَمْ قارئي أنني أُلمِّحُ أن النظامَ الإسلاميَّ هو المثاليُّ؛ بل هو نفسُ النظامِ الغربيِّ لا يليقُ بنا؛ لأنه بدلًا من الاستيرادِ من الغربِ، نكونُ قد استوردْنا من الماضي الذين كانوا يعيشون بين الخيولِ وبيوتِ الطينِ، ولم يكن عندهم إلكترونياتٌ وسياراتٌ، ولم يكن عددُ الناسِ بالملايينِ؛ فنظامُهم الزراعيُّ الرعويُّ لا يصلحُ لزمانِنا المعقَّدِ جدًّا. والمشاريعُ الإسلاميةُ في بلدانِنا كان فشلُها سريعًا ومرعبًا؛ فهذا أمامَك مشروعُ "حزب الله" في لبنان، ومشروعُ إيرانَ في المنطقةِ، ومشروعُ الإخوانِ في السودانِ، والمشروعُ الوهابيُّ في السعوديةِ الذي أنتجَ الكوارثَ (راجع مقالةً على جوجل: "50 حالةَ حملٍ من نكاحِ محارمَ في السعوديةِ"). ونظامُ الزواجِ الإسلاميِّ بما فيه من تكاليفَ ومهرٍ وأعباءَ يبدو

غيرَ عقلانيٍّ اليومَ، والأكثرُ تخريفًا وخرقًا اليومَ هو إصرارُ البعضِ على عدمِ الاختلاطِ والفصلِ المطلقِ بين الجنسينِ، وكأنَّ الأمرَ يتمُّ بسهولةٍ أو أن الشعبَ يقبلُ هذه الإجراءاتِ. قديمًا، كانت "الإماءُ" (جمعُ أَمَةٍ، أي ملكُ اليمينِ) يَغْطِينَ حاجاتِ الرجالِ الجنسيةَ ممَّن لا يتحمَّلُ أعباءَ الزواجِ، لقوله تعالى: {وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ}. أما اليومَ، فليس من المعقولِ عودةُ الرقِّ، وليس من المعقولِ حرمانُ المراهقينَ من حقوقِهم الجنسيةِ أو حتى الاختلاطِ والتعارُفِ على الجنسِ الآخرِ، ومنعُ الإنترنتِ والتلفزيونِ، وحملُ المَجْلَدةِ والسوطِ والعصا، وفرضُ الأخلاقِ بالقوةِ، _ _ _ _ _ _ _ إلخ، هي أمورٌ خرقاءُ للصراحةِ، لن تُنتِجَ إلا مجانينَ أو منافقينَ.

وثانيًا: لقد حكمَ شرقُنا بالدينِ من ذي القرنِ الثالثِ عشرَ حتى القرنِ التاسعَ عشرَ، حيث حكمَ الدينُ بقبضتِه قوَّةً، فلم يكن هناك علمانيونَ، ولم يكن هناك نسوياتٌ، ولم يكن هناك ماركسيونَ. من أين أتى الخرابُ؟ ومن أين أتى التخلُّفُ؟ ولماذا استطاعَ الغربُ أن يحتلَّ بلادَنا ويتغلَّبَ علينا؟ (راجع "الموسوعةَ الموجزةَ في التاريخِ الإسلاميِّ" على الإنترنتِ، فصلَ "المماليك"، وراجع

"المختصرَ من تاريخِ البشرِ" لأبي الفداءِ من فصلِ "قطزَ" حتى وفاةِ المؤلفِ، لكي يتبيَّنَ لك أن المجتمعَ كان إسلاميًّا بامتيازٍ بل ومتطرّفًا جدًّا، فلم يصبحِ المسلمونَ إلا في تخلفٍ علميّ وحضاريّ وثقافيّ، مما جعل بينَنا وبين الغربِ أشواطًا في العلمِ والثقافةِ والحضارةِ، حتى استعملوا كلَّ بلادِنا وعاثوا بها بطشًا ونهبًا وفسادًا، وصفَّق لهم العلمانيونَ والمسيحيونَ). وتاريخُنا مليءٌ بالغزواتِ والنهبِ والحروبِ الطائفيةِ والاقتتالِ الداخليّ، سواءً الحربُ بين بني هاشمٍ وبني أميةَ، أو الحربُ بين الأمينِ والمأمونِ، أو قتلُ المتوكّلِ لأبيهِ، أو قتلُ أمِّ موسى الهادي لابنِها، _ _ _ _ _ _ _ إلخ. وما الحربُ الأهليةُ اللبنانيةُ (1860) أو حربُ (1975) أو (1981) إلا امتدادٌ لثقافتِنا القديمةِ التي لم يتوقفْ منها سفكُ الدماءِ والصراعُ على السلطةِ منذ (1400 سنة) حتى يومِنا هذا.

فالمواطنُ العربي اليومَ بين نارينِ تُحرقانِه: نارُ العلمانيةِ والاستيرادِ من الخارجِ، ونارُ الإسلامويةِ والاستيرادِ من الماضي ومن خزعبلاتِ الفقهاءِ وكذبِ المحدِّثينَ. وأهمُّ نقدٍ موجَّهٍ لحكمِ الإسلامويينَ: لا يصلحُ حكمٌ يقومُ على عقيدةٍ أو ضميرٍ؛ الحكمُ يجبُ أن تكونَ آليتُه تتغيَّرُ وفقًا

للظروفِ، وليس إطارًا ثابتًا بناءً على نصوصٍ. فلا يمكنُ أن يعيشَ (400 مليون) عربيٍّ بمختلفِ عقائدِهم وظروفِهم وحياتِهم، _ _ _ _ _ _ _ إلخ، على نصٍّ قديمٍ عمرُه آلافُ السنينَ، ومزاجُ مفسِّريه, العقيدةِ قد تتغيَّرُ وقد تَبْطُلُ بواقعِ البحثِ العلميّ، وقد يُنافِقُ البعضُ لها، _ _ _ _ _ _ _ إلخ. أما آلياتُ الحكمِ فيجبُ أن تخضعَ للظروفِ، ويكونَ هدفُها عيشَ المواطنِ وليس إرضاءَ كائنات سماوية جبّارة. كيف لحكمٍ أن يقومَ على خيالاتٍ قديمةٍ (مثل: الكونُ على ظهرِ سلحفاةٍ، أو مكانٍ كالجنةِ أو النارِ، أو الإيمانِ بكائناتٍ روحانيةٍ شريرةٍ أو طيبةٍ كالملائكةِ، أو أمورٍ خارقةٍ للعادةِ كرجلٍ شقَّ البحرَ أو رجلٍ أحيا الموتى ومشى على الماءِ)؟ علينا إبطالُ طريقةِ التفكيرِ هذه.

"التمسكُ بتربتِك" لم تُنتِجْه الفضيلةُ الأخلاقيةُ، بل الواقعيةُ والتحكُّمُ بالظروفِ هي التي ترفضُها اليومَ. أنت حتى تبني بناءً، تأتي بالخبيرِ الطبوغرافيّ ليفحصَ التربةَ حتى يحدِّدَ لك طريقةَ البناءِ، وكذا المهندسُ الزراعيُّ يفحصُ المناخَ والتربةَ والطقسَ لكي يحدِّدَ صلاحيةَ هذه الأرضِ للزراعةِ أم لا. وكذا "التمسكُ بتربتِك" لا يعني الرجعيةَ والتشدُّقَ بابنِ تيميةَ وابنِ

خلدونَ والفارابيِّ، ولا يعني لانغلاقَ و رفضِ البحثِ العلميِّ. العلمُ واحدٌ ومشتركٌ لدى جميعِ الأزمانِ والأمكنةِ وجميعِ البشرِ بمختلفِ أعراقِهم وألوانِهم ولغاتِهم؛ لأنه يختصُّ بالمادةِ والتجربةِ، اللذين هما لا يتعلَّقان بثقافةٍ أو تاريخٍ أو تربةٍ. علينا الأخذُ من الإسلامِ ما يناسبُ تربتَنا وما أنتجَتْه جغرافيتُنا (مثل: حلقاتِ العلمِ ومجالسِ الاستماعِ والحديثِ)، ورفضُ كلِّ ما هو خرافيٌّ وغيرُ معقولٍ (مثل: الأرواحِ الشريرةِ أو الطيبةِ، والمعجزاتِ، وحرمانِ الحقوقِ الطبيعيةِ في أجسادِنا). علينا الأخذُ من الغربِ كلَّ المنتجاتِ العلميةِ والإنجازاتِ البحثيةِ (مثل: الليزرِ، والكيمياءِ، والطبِّ) ونُشاركُ بها معهم من أجلِ التكاملِ المعرفيِّ والتقدُّمِ التكنولوجيِّ. وعلينا أن نفكِّرَ اجتماعيًّا وسياسيًّا بظروفِنا اليوميةِ وإيجادِ حلولٍ لها والاستفادةِ منها، ويكونُ هَمُّنا خبزَ المواطنِ وعيشَه الكريمَ، وليس الخوفَ من الأرواحِ الشريرةِ أو الطيبةِ، ولا تحقيقَ الدولةِ الشيوعيةِ، ولا نشرَ "العَرَبْدَةِ" والخمورِ، ولا التصفيقَ لإسرائيلَ وأمريكا أو حتى لروسيا أو الصينِ، ولا انتظارَ المهديِّ حتى يخرجَ من السردابِ.

باختصار: الجيلُ العربي الجديدُ عليه أن يخضِعَ كلَّ شيءٍ للمساءلةِ دون أن يقبلَ بنموذجٍ جاهزٍ، دون أن يُسلِمَ عقلَه لرجلِ دينٍ أو فيلسوفٍ أو عالمٍ. نُعيدُ صناعةَ كلِّ شيءٍ: الدولةَ، نظامَ التعليمِ، الفلسفةَ، الأدبَ، والعلاقاتِ الاقتصاديةَ والسياسيةَ، بما يناسبُ حالَنا كأفرادٍ حقيقيّين يعيشون في هذه الجغرافيا. ألَّا نطمحَ لمشاريعَ خياليةٍ وباليةٍ وتُضحّي بأرواحِ أبناءِ بلدِنا (مثل: الدولةِ الإسلاميةِ، أو المشروعِ الشيوعيِّ، أو انتظارِ المخلِّصِ الغربيِّ، أو حتى تحريرِ فلسطينَ. فكمْ، وكمْ، وكمْ، ثم كمْ، وكمْ، وكمْ، كمْ، كمْ تُهجّرَ أناسٌ وماتوا وأُسِرُوا وذُبِحُوا بسببِ هذا الحلمِ الذي لم يتحقَّقْ حتى الآن، وتاجرَ به الجميعُ)

إذا صنعنا سلامًا مع إسرائيلَ وتناسَينا الماضيَ، أين المشكلةُ؟ طبعًا هذا الكلامُ إذا كانت إسرائيلُ جادَّةً للسلامِ. شعبٌ يهوديٌّ عاش في فلسطينَ (70 سنةً)، أكلَ وشربَ وتزوَّجَ، من غيرِ المعقولِ تهجيرُه مرةً أخرى. أي نعم، صحيحٌ أن أجدادَه ارتكبوا المجازرَ والتهجيرَ، مثلما ارتكب أجدادُنا المجازرَ والتهجيرَ بحقِّ المسيحيينَ سابقًا، ومثلما ارتكب المسيحيونَ المجازرَ بحقِّ الجزائريّينَ المسلمينَ سابقًا، ومثلما، _ _ _ _ _ _إلخ.

وإذا استمرَّتِ المعادلةُ هكذا، فالحربُ لن تنتهيَ. برأيي خبزُ مواطنٍ من غزةَ أفضلُ بـ (1000 مرةٍ) من "الأقصى"، وبيتُ مواطنٍ من خان يونسَ أغلى من كلِّ فلسطينَ (تلك التسميةُ البريطانيةُ). إذا كان الطريقُ إلى فلسطينَ يعني موتَ الكثيرينَ وحرمانَ خبزِهم، فنحن لا نريده. وإذا كان طريقُ السلامِ مع إسرائيلَ يعني تهجيرَنا مرةً أخرى وقصفَنا، فنحن أولُ من يحاربُ. باختصار: "المصلحةُ فوق المبادئِ".

على أي حالٍ، الخطَّةُ الأوليةُ هي إعادةُ تجذيرِ كلِّ شيءٍ حتى يناسبَ ظروفَنا ومزاجَنا ووجدانَنا: من تعليمٍ، وأدبٍ، وفنٍّ، وفلسفةٍ، _ _ _ _ _ _ _ إلخ. لاحظْنا كيف هرعَ الناسُ لمشاهدةِ المسلسلاتِ السوريةِ تاركينَ كتبَ الأدبِ تمتلئُ غبارًا وعفارِة، وذلك لأن كتبَ الأدبِ تعيشُ في حِيَلِ الكلماتِ وفي أبراجٍ عاجيةٍ وقصصٍ بعيدةٍ عن وجدانِ الناسِ وعيشِهم، بينما المسلسلاتُ السوريةُ من (1989) حتى (2016) تمثِّلُ عيشَ الناسِ في مأكلِهم ومشربِهم وعيشِهم، ونفسَ شكلِ منازلِهم وبنفسِ ملابسِهم، وقصصًا قريبةً من قصصِهم، مع تمثيلِ الظروفِ نفسِها التي عاشَها الناسُ؛ من مسلسلِ "مرايا" إلى "بقعةِ الضوء" إلى مسلسلِ "الندم"، كلُّها

أعمالٌ أعتقدُ أنها ستظلُّ خالدةً (مثل المسلسلاتِ: "غوار" و"باب الحارة"، وهكذا). كذلك هجرَ الناسُ الشعرَ ليستمعوا إلى الأغاني التي كلماتُها عاميةٌ مفهومةٌ، وبألحانٍ عصريةٍ لا تجعلك نائمًا، وبأنغامٍ متنوعةٍ ما بين الحزينِ والإيقاعيّ والسعيدِ، _ _ _ _ _ _ _ إلخ، وليس كالتراثِي المحصورِ في الخمرياتِ والبسيطِ. الناسُ تهرعُ للشعبِي وللأمورِ القريبةِ منهم، ليس لأنهم أغبياءُ (كما يعتقدُ حَمَقَةُ المثقفينَ)، بل هو فنٌّ وأدبٌ يمثِّلُهم وقريبٌ من وجدانِهم وذوقِهم. أما هؤلاء الفاشلونَ الذين يجلسون في برجٍ عاجيٍّ ليتأمَّلوا وينعتوا أبناءَ الأمةِ بـ"الشعبويةِ"، فهم بالاساسِ أناسٌ لا يُجيدونَ شيئًا، فلم يجدوا أمرًا يتكبَّرون به على الناسِ سوى القراءةِ وحفظِ المصطلحاتِ التي يستطيعُ أيُّ شخصٍ فعلَها.

أما دورُنا: فصنعُ فلسفةٍ ومناهجَ علميةٍ ونظريَّةِ معرفةٍ من إنتاجِنا الخاصِّ، وليس نسخَ التراثِ الديكارتيِّ أو الهيومانيِّ، وليس التراثَ الخلدونيَّ أو التراثَ الفقهيَّ. إنها فلسفةُ "سالم" و"عباس" و"موسى"، إنها فلسفةٌ من تجاربِنا الذاتيةِ، من رؤيانا الخاصةِ، من نقدِنا الذاتيِّ الخاصِّ، دون أن نقفَ كلَّ عمرِنا نتدارسُ "رسلَ"

و"ديكارت" و"سارتر" ونردِّدَ عباراتِهم كالببغاواتِ دون أن نُنتِجَ شيئًا ذاتيًّا. حتى الآن، لم أجدْ عربيًّا أنتجَ فلسفةً خاصةً ورؤيةً ذاتيةً سوى الأستاذِ محمدِ قلاوي من خلالِ كتبِه ومقالاتِه (من مثلِ كتابِه الرائعِ "مجتمعنا"، وكتابِنا المشتركِ "أُسُسُ التفكيرِ الإنسانيّ وتساؤلاتٌ في الدينِ"). هو فيلسوفٌ رائعٌ بحقٍّ، ويستحقُّ لقبَ "شرارةِ النهضةِ العربيةِ". وأما عن نفسي، فقد شرعتُ في تأليفِ مذهبٍ ناتجٍ عن تفكيري الذاتيّ، ولو أنني استفدتُ بعضَ العناصرِ من غربيّينَ وقدَماءَ، يُدعَى بـ"المذهبِ الظاهريّ"، بَسَطْتُه بالتفصيلِ في كتابِ "البحثِ عن الحقيقةِ" تستطيعُ الاطلاعَ عليه بعد أن أُصَحِّحَه. وأما عن الكتّابِ العربِ القدامى، فلم يفعلوا شيئًا سوى النقلِ: إما نقلَ التراثِ الإسلاميّ، أو نقلَ التراثِ اليونانيّ. وأما عن المعاصرينَ، ففعلوا نفسَ الشيءِ: إما تابعوا نقلَ التراثِ، أو ترجَمُوا تراثَ الغربيّ. فـ"بدوي" نقلَ التراثَ الفلسفيَّ الغربيَّ كما هو (خصوصًا الوجوديةَ)، والدكتور "ذكي نجيب محمود" نقلَ التراثَ الوضعيَّ، ولكن لم يقعْ في وجدانِ الشعبِ العربيّ ولم يُؤثِّرْ في عقيدتِه أو طريقةِ تفكيرِه، بقيتْ أعمالُهم في دائرةِ الصراعِ بين المستوردينَ الإسلاميينَ والعلمانيينَ. ولكن مع دخولِ القرنِ (21) خصوصًا بعد "الربيعِ العربيّ"،

قد ظهر جيلٌ جديدٌ من المفكرينَ الذين لم يَقتنعْ ضحية لتفاهةِ المثقفينَ ولا لخزعبلاتِ رجالِ الدينِ. فهذا "شريف جابر" في قناةِ يوتيوبَ واحدةٍ حرَّكَ الشعوبَ بحالِها، وهَزَّ عقولًا تُقدَّرُ بالملايينِ، وحطَّمَ جدارًا قَلَّما مَن تجرَّأَ الاقترابَ منه. فيديو واحدٌ من شريف كان مفيدًا أكثرَ من كلِّ أعمالِ زكي محمودَ وبدويَّ وطه حسينَ (استثناءَ المختصينَ طبعًا). اليومَ، الفيديوهاتُ الشعبيةُ بما فيها من أخطاءٍ وطفوليةٍ بعضَ الأحيانِ، لها تأثيرٌ يفوقُ الكتبَ؛ لأنها أقربُ لوجدانِ الناسِ وأسلوبِ عيشِها وأقربُ لذوقِها. حتى الكتبُ الأكثرُ شهرةً هي الكتبُ التي تشعرُ أنها جذَّابةٌ ومتسلسلةٌ (مثل كتبِ "فراس السواح"، و"السيد قمني"، و"فرج فودة"، و"ديفيد رجلِ الكهفِ").

برأيي، الحلُّ يأتي من تحطيمِ كلِّ شيءٍ اجتماعيًّا (وليس سياسيًّا، إذ هذا يُنتِجُ عنه كوارثُ، لكنه ضروريٌّ بعضَ الأحيانِ): من الأسرةِ، والتعليمِ، والفلسفةِ، والأدبِ، والفنِّ، ثم إعادةِ بنائِه بما يجعلُنا مرتاحينَ أكثرَ ونجني ثمارًا أكثرَ. وكيف يتمُّ ذلك؟

1. أن نفكِّرَ في "الغايةِ" دون أن نُقدِّسَ "الوسيلةَ". أي: المهمُّ أن يكونَ التعليمُ منتجًا وفي خدمةِ الواقعِ العمليّ. ويجبُ أن يكونَ التعليمُ (مثلًا) لصيقًا بالمعاملِ والمهنِ والوظيفةِ، والنظريُّ يُعطى هناك نتيجةً للعمليّ. وأن يكونَ (مثلًا) المهمُّ عيشَ الناسِ وأرزاقَهم وخبزَهم وبيوتَهم، سواءٌ عن طريقِ السلامِ مع إسرائيلَ، أو عن طريقِ احتلالِ دولةٍ، أو عن طريقِ، _ _ _ _ _ _ _ إلخ. المهمُّ الغايةُ، والوسيلةُ خادمةٌ للغايةِ، والغايةُ إسعادُ أكبرِ عددٍ ممكنٍ من الناسِ لأطولِ فترةٍ ممكنةٍ. فلا تقفُ سعادتُنا عند مبادئَ أو شعاراتٍ أو عقيدةٍ، كلُّ هذا نحطِّمُه في سبيلِ سعادتِه.

2. "الماديةُ" في أقصى حدودِها، حيث تفكِّرُ الناسُ بواقعيةٍ: أيْ عِلْمُنا يكونُ باختبارِ الموجوداتِ، وهو العلمُ (مثل: فَحْصِ جسمِ الإنسانِ، أو دراسةِ الأحجارِ، _ _ _ _ _ _ _ إلخ). ومن العلمِ فقط وفقط نستقي معلوماتِنا حولَ العالمِ؛ لأنها حقيقيةٌ وتستندُ إلى دليلٍ. وهذا ما يقتضي منا محاربةَ كلِّ فكرٍ خرافيٍّ روحانيٍّ؛ لأنها تشغلُ الناسَ في خيالاتٍ وأوهامٍ تُنسِيهم سعادتَهم الحقيقيةَ، وتجعلُهم في فتنةٍ متقاتلينَ. بالإضافةِ إلى أن المثاليةَ تجعلُ الناسَ في برجٍ عاجيٍّ متناسينَ واقعَهم، متجاهلينَ لذتَهم الحيوانيةَ في الجنسِ والمأكلِ والمنزلِ،

جاعليها في أحلامِ تحريرِ فلسطينَ أو صنعِ الخلافةِ أو دخولِ عالمِ الملكوتِ، أو العيشِ في عالمٍ مثاليٍّ فيه كلُّ شيءٍ بعد الموتِ أو قبلَ الموتِ. فلهذا، العلمُ يجبُ أن يكونَ ماديًّا: أي تفسيرَ العالمِ بما هو منه، وتفصيلَ الظاهرةِ بما فيها وبالعلاقاتِ التي ترتبطُ بها، وليس تفسيرَ العالمِ بالسحرِ وبالأرواحِ الشريرةِ وبالمعجزاتِ والدعاءِ. هذه المشكلةُ أعتقدُ أن حلَّها بديهيًّا, التاريخُ يجبُ أن يكونَ تفسيرُه ماديًّا حتى نستفيدَ منه ونصنعَ مستقبلَنا بشكلٍ ماديٍّ (أي من الظروفِ المتاحةِ والإمكانياتِ الموجودةِ، وليس من المعجزاتِ و الكرامات والبركاتِ). أن تكونَ الأخلاقُ ماديةً دون تنظيرٍ فارغٍ، فتُقدَّسُ المصلحةُ الشخصيةُ (كونَنا كائناتٍ أنانيةً)، والتبادلُ الحرُّ بين الطرفينِ مهَمٌّ للغايةِ إذا لم يتأذَّى طرفٌ ثالثٌ. وحتى لا ينسَى المظلومُ حقوقَه من أجلِ شعاراتٍ فارغةٍ (مثل: الوحدةِ العربيةِ، والجهادِ في سبيلِ اللهِ، وتحقيقِ الدولةِ الشيوعيةِ أو الديمقراطيةِ)، وليأخذْ حقَّه بكلِّ السبلِ المتاحةِ إن تعرَّضتْ مصلحتُه للأذى أو الإبعادِ. ويكونُ الهدفُ من الأخلاقِ هو التوفيقَ بين السلوكياتِ والمصالحِ الماديةِ، وليس لإرضاءِ خرافةٍ ما أو أسطورةٍ. فلا يعقلُ أن أُحرَمَ من وظيفتي لأن المديرَ العامَّ رأى منامًا على أن "الشيطانَ معي"مثلًا!!

علينا التخلُّصُ من القمامةِ الفكريةِ التي ملأَ الفلاسفةُ ورجالُ الدينِ والسياسيونَ والإعلاميونَ بها رؤوسَنا قرونًا وعقودًا، ونبدأَ من جديدٍ من واقعِنا الماديِّ والواقعيِّ والحقيقيِّ.

3. إلغاءُ ما لا لزومَ له: كالكلياتِ الجامعيةِ التي لا عَمَلَ لها، والاقتصارُ على ما هو مرتبطٌ بالحاجاتِ الوطنيةِ والاقتصاديةِ، واستحداثُ كلياتٍ معها تعليميةٍ من أجلِ الحاجاتِ الجديدةِ والأسواقِ الجديدةِ. مثلًا: إلغاءُ وزارةِ الأوقافِ التي لا لزومَ لها، إلغاءُ الكلياتِ الأدبيةِ (مثل: التاريخِ، والفنونِ الجميلةِ) وتركُها حرَّةَ أهواءِ الناسِ ومشاريعِهم الخاصةِ، تخضعُ للعرضِ والطلبِ. وكذا صُنْعُ معاهدَ (سنةٍ، سنتينِ) من أجلِ التدريسِ؛ فلا يعقلُ دراسةَ كليةٍ عميقةٍ كبيرةٍ للبحثِ العلميِّ حتى يصبحَ الطالبُ مدرِّسًا فقط. وتُقتصرُ وكالاتُ البحثِ العلميِّ على عددٍ محدودٍ من الطلابِ لتأهيلِهم كباحثينَ، وجعلُ أكثريةِ الناسِ والطلابِ في الواقعِ التجاريِّ والمهمني، فحَمَلَةُ الشهاداتِ أكثرُ من الذبابِ يَنْحَوْنَ كالمطلقاتِ. وكذا تُؤهِّلُ بعضُ الكلياتِ الطلابَ كموظفينَ أو عاملينَ بدوراتٍ تأهيليةٍ أو معاهدَ قصيرةِ الفترةِ، حتى لا نُضيِّعَ على الطلابِ حياتَهم ثم يقعون ضحيةَ البطالةِ. وكذا إلغاءُ العلومِ غيرِ المفيدةِ والدراساتِ البعيدةِ عن الواقعِ

(كالعلومِ الشرعيةِ، واللغويةِ، والأدبيةِ) وجعلُها تحتَ الذوقِ الشخصيّ والحرّ. وكذا القانونُ والاقتصادُ يتغيَّرانِ بما يناسبُ الظروفَ دون الثباتِ على شكلٍ واحدٍ، بشرطِ أن تُناقِشَه فئاتُ الأمةِ بأكملِها (ليس الفئاتُ الطائفيةَ الوهميةَ، بل الفئاتِ الاقتصاديةَ والاجتماعيةَ: أي من إناثٍ وذكورٍ، وعَجَزَةٍ، وعمَّالٍ، وأساتذةٍ، وتُجَّارٍ، وباحثينَ، وموظفينَ، _ _ _ _ _ _ _ إلخ).

4. عدمُ التطرُّفِ للآليةِ، بل التطرُّفُ للغايةِ والهدفِ فقط (وقد سُبِقَ شرحُ هذه النقطةِ في "تقديسِ الغايةِ والنتيجةِ وعدمِ الالتفاتِ للوسيلةِ").

5. التطرُّفُ للموضوعيةِ، وإهمالُ الآراءِ الذاتيةِ والخيالاتِ والأوهامِ. مقاييسُ التجربةِ والإحصائياتُ أهمُّ من رأيِ إنسانٍ ضعيفٍ يتغيَّرُ رأيُه ويتأثَّرُ بحالتِه البيولوجيةِ والعقليةِ وذكرياتِه الخاصةِ وحوادثِه الشخصيةِ.

6. تُسقَطُ المبادئُ أمامَ مصلحةِ الأفرادِ وحياتِهم.

7. التطرُّفُ لحاجاتِ الإنسانِ البيولوجيةِ وحقوقِه الاقتصاديةِ والمعنويةِ.

8. إيجادُ فنٍّ شعبويٍّ عفويٍّ قريبٍ من الحياةِ، ويخضعُ لذوقِ الفنانِ والجمهورِ دون قيدٍ سياسيٍّ أو دينيٍّ، بل متعةٌ متبادلةٌ فقط.

9. محاربةُ ما يضرُّ الإنسانَ (كالكحولياتِ، والدخانِ، والحجامةِ، والأرجيلةِ، والمخدراتِ، والحشيشةِ) لأسبابٍ صحيةٍ ونفسيةٍ.

10. الالتصاقُ بالعلمِ وأهلِه، ودعمُ البحثِ العلميِّ حسبَ الإمكانياتِ المتاحةِ، وربطُه مباشرةً بالواقعِ الاقتصاديِّ.

خاتمةٌ: هذه النقاطُ العشرُ التي لخَّصْتُها الآنَ هي التي (بحسبِ اعتقادي) يجبُ أن تسيرَ عليها الأجيالُ العربيةُ الجديدةُ؛ لأنها أفكارٌ تنتشرُ شعبويًّا وتُلاقي رواجًا، لكن أهلَ الجهلِ وأصحابَ المبادئِ الفارغةِ وأهلَ الأبراجِ العاجيةِ من الفاشلين والسياسيّينَ (الذين يتمسَّكون بمصالحِهم التي تضرُّ بمصالحِ الأكثريةِ من الشعبِ)، يُحاربونَها من أجلِ نظرياتِهم الفارغةِ ومكانتِهم السخيفةِ. فلا مكانةَ لأحدٍ فوقَ أحدٍ (عامل النظافة مثلُ الطبيبِ والشحَّاذِ مثلُ الرئيسِ)، ولا ثقافةَ للاستعلاءِ على الناسِ، ولا فنَّ في برجٍ عاجيٍّ، ولا فلسفةَ ببغائيةٍ مستوردةٍ.

بل انتظرْ موجةً من شبابٍ شعبويينَ متعلِّمينَ يشعرونَ بألمِ أُمَّتِهم، وسلاحُهم العلمُ والمنطقُ، لديهم شجاعةُ قولِ الحقِّ في وجهِ أهلِ الجهلِ والسياسةِ. لقد كان "شريف جابر" و"أحمد حرقان" و"قصي بيطار" و"جمال معماري" و"حامد عبد الصمد"، _ _ _ _ _ _ _ إلخ، هم الظهورَ الأوليَّ لهذه الظاهرةِ التجديديةِ والتيارِ العربيِّ الذي سيَجْرُفُ معه كلَّ عَفَنٍ مستوردٍ من الغربِ أو من الماضي. والأملُ بالأجيالِ الصاعدةِ الحقيقيةِ التي استحقرتِ الكذبَ والنفاقَ والذلَّ الذي كان عند الأجيالِ السابقةِ. ثوراتٌ اجتماعيةٌ (على ما أرى، هذا توقُّعٌ وليس تنبُّؤًا) ستظهرُ وتأتي معها بحضارةٍ عظيمةٍ، وإني أعيشُ بداياتِها الآنَ تخرجُ من الإنترنتِ حتى حياتِنا اليوميةِ، لصنعِ تمرُّدٍ عربيٍّ جديدٍ يأتي معه بالخيرِ كلِّه.

الحمد لله رب العالمين .

كتب هذا النص العبد الفقير لله موسى الموسى أبو عمران الحمر في 18 أغسطس ريف دمشق الموافق للساعة السادسة ظهرا .

و الصلاة و السلام على سيدنا محمد و على آله و صحبه أجمعين .